"مساءلات نقدية في دراسة الغرب"[1]
محاولة منهجية في تأسيس علم الاستغراب

المؤلف: أ.د. عبد العزيز بن فضيل بوالشعير[٢]

https://aif-doi.org/AJHSS/106705

(١) هذا البحث تم دعمه من خلال البرنامج البحثي العام بعمادة البحث العلمي بجامعة الملك خالد بالمملكة العربية السعودية بالرقم /GPR١٠٤ ٤٣

(٢) أستاذ الفلسفة والمذاهب الفكرية بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة.
bouch_abde01@yahoo.fr
abouchair@kku.edu.sa

الملخص بالعربية

يندرج البحث ضمن الدراسات الفلسفية التي تتناول موضوع مساءلات نقدية في الغرب محاولة منهجية في تأسيس علم الاستغراب، بهدف الكشف عن القواعد المنهجية التي تمكننا من فهم الغرب وتفسيره، والإجابة على الإشكالية الرئيسية كيف ندرس الغرب؟ ومساءلة مفاهيمه وتطوّره وتتتبّع مساراته ومآلاته، متوسّلين في ذلك بالمنهجين التحليلي والنقدي، مستعينين في ذلك بأدوات معرفية في الفهم والتفسير وقواعد منهجية في استشكال الموضوع وخلفياته الدينية والفلسفية والعلمية وتعقيداته الابستيمولوجية والواقعية. وانتهى البحث إلى جملة من النتائج التي تساعدنا في دراسة وفهم الغرب وبيان رؤيته المعرفية ومقاصده الحداثية ومنجزاته العملية وأبعادها، وقفنا بعد القراءة النقدية له على آفاقه المستقبلية وفرضيات سقوطه وأفوله، وعرضنا ملامح منظوريتنا الفكرية لتجاوز أزمات الغرب الرؤيوية والمنهجية وطرحنا رؤى ونماذج معرفية بديلة عنه.

الكلمات المفتاحية: الغرب، الاستغراب، مساءلات، النقد، علم الاستغراب.

ABSTRACT

The research falls within the philosophical studies that deal with the subject of the West and study it as a systematic attempt to establish the science of strangeness, with the aim of revealing the methodological rules that enable us to understand and interpret the West, and to answer the main problem: How do we study the West? And questioning its concepts and development and tracing its paths and outcomes, relying on the analytical and critical approaches, using knowledge tools in understanding and interpretation

ISSN : 2410-1818

and methodological rules in shaping the subject and its religious, philosophical and scientific backgrounds and its epistemological and pragmatic complexities. The research concluded with a number of results that help us in studying and understanding the West and clarifying its epistemological vision, its modernist intentions, its practical achievements and its dimensions..
Key words: The West. Western study. Criticism. Accountability. Science of Western study.

يقول نيال فرغسون(Niall Ferguson[1] -١٩٦٤)

"إنّ صعود الغرب، بكل بساطة، الظاهرة التاريخية الأهم في النصف الثاني من الألفية الثانية بعد المسيح. إنها القصة التي توجد في قلب التاريخ الحديث. ربما هي اللغز الأكثر إثارة للتحدّي الذي يبقى على المؤرخين حلّه. علينا أن نحلّ هذا اللغز ليس من أجل إرضاء أنفسنا فقط، وذلك لأنه بواسطة تحديد الأسباب الحقيقية لصعود الغرب يمكننا فقط، بدرجة من الدقة، تقدير احتمال انحدارنا وسقوطنا "نيال فرغسون: "الحضارة كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟" ص (٦٠)

١.المقدمة

يدرس البحث الذي بين أيدينا ظاهرة الغرب؛ تاريخه الفكري وتطوره الروحي، يحلّل بنياته المعرفية وأنساقه الثقافية والقيمية بما تشكّله للوعي الفلسفي موضوعا للتفكّر وظاهرة حضارية للتأمّل والنظر، وحدثا للتدبّر والاعتبار، وذلك لتميّزه عن غيره معرفيا ومنهجيا، وهيمنته واقعيا، وامتداده ثقافيا، وامتلاكه لخصوصية في النشأة والتكوّن والتطوّر والمآل. فقد اعتُبر الغرب بنظر الباحثين بمثابة نص مكتوب أو رواية متماسكة لقصة تكوُّن وتطوّر العقل الغربي وإدراكه المتغيّر للواقع كما يصفه ريتشارد تارناس (RICHARD TARNAS في كتابه: "The Passion of the western Mind"[2]دفع المشتغلين بالدرس الفلسفي والتاريخي المعاصر إلى تطبيق مناهج ومقاربات فلسفية وعلمية في دراسته، باستخدام أدوات تحليلية وتفسيرية ونماذج معرفية لنظرة الغرب إلى العالم في صيغها المتطوّرة من الصورة الإغريقية القديمة إلى الصيغة المعاصرة، قصد فهمه فهما أكثر عمقا، وتفسيره تفسيرا يُسهم في تحقيق الفهم المتوازن لأفكار ومناهج وتاريخ العالم الحديث والمعاصر أولا، والعمل على بناء أو استحداث نماذج معرفية وحضارية عالمية مغايرة للنموذج الغربي، نكسر من خلالها

[1] Ferguson Nial. 2011, Civilization the West and the Rest, the Penguin Press.

[2] تارناس، ريتشارد، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، آلام العقل الغربي فهم الأفكار التي قامت بصياغة نظرتنا إلى العالم، ترجمة: فاضل جتكر، ط١، العبيكان المملكة العربية السعودية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، الإمارات العربية المتحدة، ص .17 ينظر أيضا:

6. Tarnas Richard. 2010, The Passion of the Western Mind Understanding the Ideas That Have Shaped Our World View, vintage publishing, London.

ISSN : 2410-1818

وجهة نظر المركزية الأوروبية وتتجاوزها، ونؤكّد على التحوّل الكامن والممكن في الغرب في إنتاجه الفكري وأدواته وأحداثه،[1] ومناهجه بعيدا عن الفكر الغربي وتراثه المعرفي والحضاري. ولتحقيق ذلك ينبغي علينا كدارسين للغرب ومنظومته في الفكر والحياة الحفر في أصوله التاريخية وخلفياته الفكرية والفلسفية، والبحث في المعطيات العلمية والمنهجية والإيديولوجية العلمانية التي امتاز بها وصاحبت مساره منذ بداية العصر الحديث على الأقل. والذي شكّل في النهاية جدلية في الوعي الغربي تراوحت بين تأثير وتأثر الغرب بالعلمانية وصانعا لها من جهة، وبين الغرب والحداثة بما هما متتالية في نشوئهما وتطورهما من جهة ثانية، وبين الغرب وما بعد الحداثة بما هما مآلا وثمرة من جهة ثالثة، فقد اعتمد الغرب آليات العلمنة والتحديث والتقدّم التي انتهجها بتوجيه من فلاسفته ومفكريه وعلمائه على اختلاف حقولهم العلمية ومدارسهم الفكرية، بما اعتقدوا أنه النهج الأنسب لحياتهم والحلّ الأنجع لمشكلات واقعهم والضامن الوحيد لبلوغ مستقبلهم والذي من خلاله يتجاوزون مآزقهم التي أفرزتها منظومتهم الفكرية في أبعادها الفلسفية والعلمية والدينية والعملية، انطلاقا مما تبنّته مؤسّساتهم كرؤية للعالم ومنهجا للتفكير والتعمير وطريقا للفهم والبناء ونموذجا للتحضّر والتقدّم ومقصدا للإنسان والإنسانية.

وفي هذا الإطار، عرف الغرب تجاذبات فكريّة وصراعات مذهبية تجلّت في شكل نزاعات سياسيّة بل وحروب دموية، بين من يدعو إلى تبنّي الرؤية العلمانيّة ببعديها الجزئي والشامل والأخذ بكل مقولاتها وأفكارها وسيروراتها الفكرية والثقافية والاجتماعية[2] وممارساتها الواقعية، واعتماد آليات علمنتها الكليّة للفرد والمجتمع والدولة في شكل متتالية هندسية، وبين الرؤية التي تنجذب نحو العيش بمنطق العلمنة الجزئية وتحقّقها في الأفكار والواقع، والإبقاء على العامل الديني كناظم للفكر والسلوك والحياة، بما تشكّله هذه الرؤية من توسط في الوعي واعتدال في المنهج بالجمع بين الدّين وقضاياه ومجالاته وتفسيراته ورؤيته للإنسان والله والكون وبين العلمانيّة والحداثة بما هما مستوى في الوعي وتعقل العالم وتجلّيا عمليا لهذه الرؤية في الواقع.

[1] كولينر، راندال، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، علم اجتماع الفلسفات التأثير الاجتماعي والسياسي في نشأة الفلسفات والأفكار، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، الإمارات العربية المتحدة، ص.17

كولينر، راندال، ٢٠١٩م، نشأة الفلسفات والأفكار، المجلّد الأوّل، ترجمة: فريق جسور للترجمة، مراجعة: خليفة الميساوي، ط١، جسور للترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ص.٢٠

[2] بلجرامي، عقيل، ٢٠٢٢م، ما بعد العلمانية دراسات نقدية، ترجمة: طارق عثمان، ط١، نماء للبحوث والدراسات بيروت لبنان، ص.١٨٦

ISSN : 2410-1818

إشكالية البحث وتساؤلاته :

تأتي الإشكالية الرئيسية للبحث لتجيب عن سؤال كيف ندرس الغرب؟ تتساءل عن مفهومه وتطوّره وتتتبّع مساراته ومآلاته، مساءلة نقدية متوسلين في ذلك بآليات تحليلية وأدوات منهجية باعتبارها محاولة منهجية في الفهم. تنظر في الغرب بما هو ظاهرة حضارية متميّزة تستدعي التأمّل والفهم والدراسة والنقد وتنتقل بوعي الدارس له من ذهنية ونفسية التماهي معه إلى ذهنيةٍ ونفسيةٍ تتجاوزه، لتعرض بدائل نظرية ونماذج معرفية كإمكانات حضارية مغايرة له. تسمح لنا الانتقال إلى ما بعد الغرب، والحديث بجدية عما بعد حضارته وما بعد حداثته وما بعد نهايته.

والإجابة على هذه الإشكالية يقتضي منا طرح التساؤلات الفرعية التالية:

- ما هي الأسئلة الكبرى التي تعيننا على دراسة الغرب ومحاولة فهمه؟
- كيف نحلّل جدلية حضور الغرب وغيابه عن وعينا الفلسفي؟
- ما هي مسوّغات الاهتمام بالغرب ولماذا تأخرنا في دراسته؟
- ما هي ملامح الصورة التي رسمها الدارسون عن الغرب وهل هي كافية للكشف عن حقيقته؟
- ما المنهج المناسب لفهم وتجاوز جدلية المركز والهامش التي صنعها الغرب عن ذاته، وما القصد من دراسته؟
- كيف يبرر الغرب صور وأشكال هيمنته على العالم، وما هي فرضيات تجاوز هذه الهيمنة، وهل هناك بدائل ناضجة عنه؟

والبحث في الغرب له أهمية بالغة تكمن في كونه يعالج إشكالية فلسفية حضارية راهنة تتعلّق بالتطورات الكبيرة التي يشهدها الغرب المعاصر، ما يجعل البحث في بنيته وتاريخه ضرورة معرفية، ومتطلبا عمليا، نعمل فيه على تحليل وتفسير ونقد المنظومة المعرفية الغربية بأبعادها المادية والعلمانية والحداثية، ونتتبّع تطوراتها في الوعي والواقع الغربيين. كما يسهم البحث في فهم أبعاد امتدادات الظاهرة الغربية بجميع مكوناتها وخصائصه في العالم العربي، بغية الوقوف على العناصر المكوّنة لمنظومته والتطورات والتغيّرات المصاحبة له في الوعي الغربي وبالتالي معرفة سبل تجاوزها أو الحد من تأثيراتها في واقعنا العربي والإسلامي.

وقد كان هدفنا من البحث تحقيق الآتي:

- طرح الأسئلة الكبرى التي تعيننا على دراسة الغرب ومحاولة فهمه.
- تحليل جدلية حضور الغرب وغيابه عن وعينا الفلسفي.

ISSN : 2410-1818

- التعرف على مسوغات الاهتمام بالغرب وبيان أسباب تأخرنا في دراسته.
- الوقوف على الصورة التي رسمها الدارسون عن الغرب والكشف عن حقيقته.
- الإجابة عن سؤال المنهج في فهم جدلية المركز والهامش التي صنعها الغرب عن ذاته، وبيان القصد من دراسته.
- تفكيك صور وأشكال الهيمنة الغربية على العالم، وبحث فرضيات تجاوز هيمنته وطرح بدائل عنه.

وبخصوص المنهج الذي اعتمد في البحث فقد تنوّع بين جملة من المناهج بحسب طبيعة الموضوعات المطروقة، والأهداف المتوخاة من البحث، والتي نوجزها في الآتي:

المنهج الاستقرائي: نقوم فيه باستقراء النصوص والآراء الفلسفية حول موضوع الغرب وعلمانيته وحداثته، ونتتبع أهم ما كتب حوله من داخل النسق المعرفي الغربي ومن داخل النسق المعرفي الإسلامي والشرقي.

المنهج التحليلي: نحلّل فيه بعض النصوص والأقوال التي وردت في موضوع الغرب وفلسفته وأنساقه وعلومه وفنونه، نبرز فيه أهم المضامين الفكرية والحمولات الإيديولوجية التي تضمنتها هذه النصوص.

المنهج النقدي: نعمل من خلاله على قراءة نقدية للطروحات الفلسفية المؤسّسة للرؤية المعرفية الغربية، المتحيّزة للغرب ومنظومته الفكرية، والداعية لمقولاته المركزية ذات المنحى العرقي والحضاري، والكشف عن جوانب الانحراف الفكري وآثاره السلبية على واقع الإنسان المعاصر.

٢. تساؤلات بين يدي الموضوع

يأتي سؤال لماذا الاهتمام بالغرب؟ من ضمن الأسئلة الأولى التي تتبادر إلى ذهن القارئ العربي، ذلك أن هذا الاهتمام يحتاج إلى مسوغٍ مقنع، بمعنى؛ هل نهتم بالغرب لأنه متقدّم؟ ويحتم علينا طرح سؤال التقدّم في بعديه الخطي واللولبي، وأيهما نتبنى في عرضنا لفكرة تقدم الغرب؟ أيرجع ذلك إلى كوننا متخلّفون؟ وبالتالي ضرورة طرح سؤال التخلّف والانحطاط الذي يعيشه العالم العربي والإسلامي .أم أننا ندرس الغرب فكرا وحضارة لأنه الأكثر فاعلية وحضورا وتأثيرا في الواقع العالمي؟ ما يعني بالنسبة للباحثين حتمية الإجابة عن سؤال الهيمنة والتسلّط والاستعمار والاستغلال التي مارسها الغرب على الشعوب والأمم الأخرى، عبر متتالية تاريخية وحضارية تجلّت في جدلية الأنا والآخر وما استتبع ذلك من أشكال التأثر والتأثير بينهما. أم أن منطق التفاعل والتثاقف هو الذي يفرض علينا أن ندرس الغرب كفكرة وكنموذج معرفي وحضاري متميز وناجح، نسعى من خلالها إلى فهم الأفكار التي عملت على صناعته وأثرت على العالم أو فهم الأفكار التي قامت بصياغة نظرته إلى العالم كما

ISSN : 2410-1818

قال المؤرخ البريطاني ريتشارد تارناس(١٩٥٠م Richard Tarnas)؟ وعندئذ فنحن ملزمون بالإجابة على سؤال: كيف انبثقت فكرة الغرب؟ وكيف تفتحت وأثمرت؟ وكيف كبُرت وفرضت نفسها كتجربة ناجحة في الواقع على الأقل طيلة أربعة قرون الأخيرة؟ بل يتعدى الأمر إلى محاولة فهم وتحليل كيف امتلك الإنسان الغربي القدرة على صناعة الأفكار وتطويرها تنزيلها في واقعه التاريخي المعقد؟ بل وكيف صنعت هذه الأفكار الإنسان الغربي ذاته فشكّلت شخصيته وعرّفت به في تاريخ العالم الحديث والمعاصر؟[١] بل وكيف تحوّلت الأفكار التي أبدعها العقل الغربي إلى إيديولوجيات مغلقة ونماذج معرفية مهيمنة على الفكر والحياة؟ الأفكار التي نظمت الواقع وأملت في أن تحتل يوما منصب الحقيقة، "ويمكن لها أن تصير إيديولوجيا حينما تقدّم رؤية للعالم تهيكل حياة عدد وافر من الناس."[٢] وعليه كيف استطاع الغرب بأفكاره التي تحوّلت إلى إيديولوجية أن يخلق نظاما تواصليًا يمسك بديناميكية التاريخ؟ يمكننا في الأخير من مناقشة سؤال الغرب والإيديولوجيات.

فقد تشكّل الغرب الحديث في إطار المنظومة الحضارية برؤيتها المخصوصة للعالم ذات السمة المادية والعلمانية، بل وكحتمية تاريخية برزت في"إطار قضاياه الكونية في التاريخ والثقافة والسياسة والحداثة والفن، وانتهت بالمجتمع الغربي إلى امتلاك عناصر القوة ومقومات التميّز ومسوّغات الهيمنة والنفوذ، فـ" أيّ تسلسل من المسبّبات والظروف أدّى إلى انفراد أرض الغرب بنشوء ظواهر حضارية جنحت في واقع الحال-على الأقل حسب ما شاء لنا أن نتصوّر-إلى منحى تطوّري ذي شأن ونفاذ على الصعيد الكوني؟" كما حمل الغرب في نشأته وتطوره أسباب ضعفه وبذور فنائه، فهل حصل ذلك استنادا إلى ما حملته رؤيته المعرفية للعالم من مبادئ وأفكار ومناهج ساهمت بشكل واضح في نشوء الحضارة الغربية واشتداد عودها واكتمال عناصرها وامتداد تأثيراتها في العالم؟ هل ذلك هو الذي جعل البعض يعتقد بأنّ ما حدث للغرب نشأة وتطورا وحضارة وقوّة، لم يكن ليحدث لو لم يتبني الأطروحة العلمانية، التي عملت مؤسّسات المجتمع الغربي على الشروع في تنفيذ عمليات العلمنة لمعظم مناحي الفكر والحياة والوجدان والواقع، والذي جعل "المجتمع (المفتوح) يتضمّن حريّة الفرد وشخصيته، وتصوّره، وحريّة تفكيره، وحقّه في نقد المؤسّسات السياسيّة، والتبادل الحرّ للأفكار." في مقابل الطرح الذي يرى بأنّ كتابات الفلاسفة الغربيين عن أفول الغرب وسقوطه وموته وانتحاره إنما هي دليل واضح ومؤشّر خطير وقوّي على الاعتلال المنهجي والقصور المعرفي الذي وقع فيه الغرب عندما توجّه نحو العلمانيّة والحداثة كفلسفة ومنهج في الحياة، فراح نقاده يعدّدون جملة الانحرافات الفكرية

[١] بورداس، نيكولا،٢٠١٦م، الفكرة القاتلة السياسة، الأعمال، الثقافة...إصرار الأفكار الخالدة، ترجمة: وفاء التومي، مراجعة وتحرير: نزار شقرون، ط١، وزارة الثقافة والرياضة، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، قطر، ص ٩، ١٠.

[٢] المرجع نفسه، ص.131

ISSN : 2410-1818

والاعتلالات المنهجية والأزمات الواقعية التي عاشها المجتمع الغربي باعتبارها نتائج حتمية لخياره الخاطئ منذ البداية.

والأمر بهذا الشكل يعتبر مدخلاً أساسياً من مداخل البحث والنّظر في أطروحة نقد الغرب وتفكيك علمانيته ونقض حداثته والسعي إلى الحديث عما بعد العلمانية [1]وما بعد الحداثة في الغرب التي انتهت إلى ما يسمى بموت الإنسانية، بالإضافة إلى المداخل الأخرى المتعدّدة التي تمكننا من فهم الغرب وحضاراته؛ ومنها طبعا؛ المداخل المعرفية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية والصناعية الخ، التي كان ينظر إليها على أنها رموز من "تفوق الغرب" على حساب باقي العالم.

ويأتي عرض هذه المداخل ونقدها بغرض بسط ومناقشة أطروحات بديلة لها، من شأنها أن تساعد الإنسان الغربي على تجاوز مآزقه وأزماته التي ظل يتخبّط فيها منذ بداية القرن العشرين إلى اليوم، ومسوغ ذلك كلها أنها تمثل إمكانات حضارية وتجارب حياتية ونماذج معرفية مختلفة ومتباينة عن النموذج والتجربة الغربيتين، منطلقنا في هذه القراءة النقدية لعلمانية الغرب وحداثته وما آلت إليه، هو ما كُتب حوله مع مطلع القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، والتي عززتها كتابات الفلاسفة والمفكرين في العالم العربي والإسلامي، والتي نبّهت بوضوح إلى عجز المنظومة المعرفية بخلفياتها العلمانية؛ خصوصا المتطرفة منها، ذات البعد العنصري المتمركز على ذاته، بأطره المعرفية ومقولاته الفلسفية وممارساته العنيفة في الواقع، والدعوة إلى عودة المقدّس الديني بشكل مغاير لما تم في التجربة الغربية الوسيطة والحديثة، بما هو مخرج وحل وتجاوز لهذا المأزق الغربي المعبّر عن وصول العلمانية إلى نهايتها أو اقترابها من حتفها والدخول بعدها في مرحلة تتعايش فيها الرؤية الكونية للدين مع الرؤية العلمانية للكون، كخيار من الخيارات الممكنة، والذي سُمّي حينها بمصطلح ما بعد العلمانية post-secularism، بدلا من الاستمرار في الحديث عن مجتمع ما بعد الدين الذي ساد العالم الغربي طيلة الأربعة قرون الماضية.

٣.جدلية حضور الغرب وغيابه عن وعينا

من زاوية أخرى، يمكننا أن نطرح سؤال الحضور والغياب في علاقتنا بالغرب وبالتالي نتساءل: هل ندرس الغرب لأنه يسكن وعينا الفردي والجماعي ويخلق فينا هيجانا فكريا واضطرابا نفسيا وخوفا من الآخر مخافة الانصهار الكلّي والذوبان في الغرب، فنفكّك حينها حضوره فينا وغيابنا عنه في جدلية مستمرة تتقارب أحيانا وتتباعد أحايين أخرى. هل نخضع في دراستنا له لمنطق الثنائيات التي

[1] أنظر: تايلور، تشارلز، ٢٠٢٢م، ما بعد العلمانية دراسات نقدية، ترجمة: طارق عثمان، ط١، نماء للبحوث والدراسات، بيروت لبنان.

ISSN : 2410-1818

لازمت الوعي الفلسفي الغربي في تاريخه وهو يتناول القضايا والمشكلات ويجيب عن مختلف التساؤلات حول الأنا والآخر بمنظور طبقي في الغالب، باعتباره نموذجا يقاس به تطور المجتمعات أو تخلفها في إطار المنطق الذي يحدد العلاقات بين القضايا الآتية: التبعية الاقتصادية، سياسة التخلف والتطور الرث، البنية الاستعمارية والشعوب المستعمرة، الاستقلال والاستغلال، التحرّر والهيمنة، الإمبريالية والإمبريالية الجديدة؟[1] حينها نلتزم في تحديدنا لمفهوم الغرب بالمعنى الذي صنعه لذاته والذي تشكّل داخل نماذج معرفية متحيّزة ضمن جدليات المتحضّر والهمجي، أو المتمدّن والبدائي أو المتقدّم والمتخلّف؟ منطلقا من تمركز حول سؤال المتحضّر والهمجي كما جاء في كتابات الغربيين وأدبياتهم الفكرية والثقافية. بل كيف ساهم المفهوم الذي صنعه الغرب لنفسه في إعادة تعريف الأوروأمريكي أو الغربي لذاته داخل دوائر فكرية ونفسية وسلوكية معينة؟ ثم هل نستطيع تحرير مفهوم الغرب المتحيّز عن جملة المفاهيم والمصطلحات المتداولة في نصوصه المختلفة والمتحكمة في مواقفه وممارساته؛ كالعرقية والعنصرية والبربرية والمركزية واليوتوبيا...الخ؟ بل كيف نعيد تشكيل مفهوم الغرب البسيط والواقعي والإيجابي دون مبالغة ودون تحيّز لمنظومات ضيقة أو ظالمة أو محقّرة لغيرها؟ في إجابة واضحة عن سؤال التحيّز والمركزية الغربية.

من جهة أخرى، هل يأتي اهتمامنا بالغرب ودراسته وتحليل مساره التاريخي وتطور نسقه الفكري وبنيته المعرفية وتحوّل أشكاله الحضارية بسبب أنه هو الذي ينتج العلوم والمعارف والفنون والآداب والتقنية؟ فنربط سؤال المعرفة بالتقنية، وبالمستوى العلمي والحضاري الذي بلغه الغرب وبما قدمه للعالم من نظريات فلسفية ونماذج معرفية ونصوص أدبية ومكتشفات علمية وصناعات وإبداعات تكنولوجية برُغم ما شابها من نقص أو نقد أو انحراف أو تأثير سلبي على حياة الإنسان المعاصر في تفاوت وتباين حتى داخل الحضارة الغربية نفسها، ما دفع بالبعض إلى طرح سؤال الوحدة والانسجام في المنظومة المعرفية والحضارية الغربية، ومنه هل نهتم بالغرب لأنه يشكّل وحدة ثقافية متميّزة، معرفيا، منهجيا، سياسيا واقتصاديا مهيمنة واقعيا؟ أم لأنه يعيش حالات من التشظي والانقسام على مستوى الوعي أولا ثم على مستوى الواقع ثانيا، ولعل الحرب الروسية الأوكرانية خير دليل على هذا الانقسام الذي أصبح باديا للعيان بأبعاده النفسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، وما ينجم عنه من تقسيم للعالم إلى معسكرين متجاذبين مرة ثانية بعد المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي اللذان هيمنا على العالم قرابة قرن من الزمان. وهنا نكون أمام سؤال الثقافة والنظم التي ينبغي أن تدير العالم وتتحكّم في مصيره. فهل الانقسام الذي وقع في الغرب يوحي بأزمة في القيم يعيشها الغرب المعاصر، وما صاحبه من تشوّه في الرؤية المعرفية وانعكس على المنظومة القيمية التي عرفت تجاذبات فلسفية ومذهبية حادة، جعلت الإنسان الغربي يعاني من تأزم في السلوك وانحلال في الأخلاق واضطراب في

[1] ينظر: غوندر، فرانك، ١٩٧٣م، البورجوازية الرثّة والتطور الرثّ، ترجمة: الهيثم الأيّوبي والكرم ديري، دار العودة بيروت لبنان.

ISSN : 2410-1818

الرؤية الجمالية للعالم وما فيه من أحداث وظواهر؟ دفعته إلى إعادة النّظر في قيم الحق والخير والجمال، والسعي إلى تجديد بنائها وفق رؤى ما بعد حداثية، غيّرت خلالها في نظرتها للعقل ومفهومه، والحقيقة ومجالاتها، والخير وأشكاله، والجمال والفن وممارساته، كل ذلك جاء في إطار الإجابة عن سؤال الغرب والقيم. والذي جسّده الكتاب الذي شارك فيه كبار الفلاسفة والمفكرين المعاصرين والذي حرّره "جيروم بندي" بعنوان: "القيم إلى أين؟"[١] حيث جاء في مقدمته التي كتبها: "كويشيرو ماتسورا ١٩٣٧م" (Koichiro Matsuura) الأمين العام لمنظمة اليونسكو:" إلاّ أنّ الأزمة التي نجتازها تدل على أننا قد أضعنا بوصلتنا الأخلاقية، ولم نعد نتمكّن من تحديد الاتجاه الصحيح. لا توجد أزمة قيم- وعندنا منها الكثير- بقدر ما توجد أزمة في تحديد معنى القيم، وفي الاستعداد والأهلية لإدارة شؤوننا. فالمسألة الملحّة تتلخّص إذن في معرفة كيفية توجهنا بين القيم."[٢] مجموع هذه التساؤلات تندرج ضمن دراسة الأنا للآخر الغربي في إطار فلسفة العلاقة والتفاعل معه، بغية الانفتاح عليه ومعرفته من داخله؟ أو نقده والكشف عن مواطن القصور والانحراف في منظومته المعرفية والقيمية والاجتماعية والحضارية تعكس في النهاية محاولة للإجابة عن سؤال الأنا والآخر. وفي ظل الحديث عن أزمة الغرب جاءت أطروحة نهايته أو ما يسمى بما بعد الغرب، ذلك أن الكثير من علماء الاجتماع وفلاسفة الحضارة اشتغلوا في كتاباتهم حول فلسفة النهايات؛ ككتاب فرانيس فوكوياما ١٩٥٢م ((Yoshihiro Francic Fukuyama عن "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" الذي صدر عام١٩٨٩م، فقد كانت الأطروحة الأساسية للكتاب تدور حول الديمقراطية الليبرالية القائمة على قيم الحرية والفردية والمساواة والسيادة الشعبية، باعتبارها تشكّل مرحلة نهاية التطور الإيديولوجي للإنسان.[٣] والأمر كذلك مع كتاب جياني فاتيمو (Gianteresio Vatimo) ١٩٣٦م الموسوم بـ: "نهاية الحداثة" والذي أشار فيه إلى مسألة العدمية وأزمنة الأنسنة" إذا يقول في الفصل الأخير من الكتاب ما يلي: "في هذا العمل، تُطرح مجددًا مسألة الخروج من المرض التاريخي، أو أكثر تحديدًا: مسألة الحداثة بوصفها انحطاطًا(...) وهكذا، يستحيل الخروج من الحداثة ظنًّا بتجاوزها. أما اللجوء إلى القوى المؤيدة فيشير إلى وجوب إيجاد طريق مختلف..."[٤] ونفس الفكرة طرحت في الدراسات الاجتماعية المعاصرة التي تتحدث عن نهاية العالم وضرورة الاتجاه نحو علم اجتماع القرن الحادي والعشرين وهو عنوان الكتاب الذي نشره إيمانويل

[١] بندي، جيروم (تحرير)، ٢٠٠٥م، القيم إلى أين؟ ترجمة: درويش جبور وجان جبور، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون" بيت الحكمة" واليونسكو، قرطاج تونس.

[٢] المرجع نفسه، ص.١٢(الكلام مقتبس من الأمين العام لمنظمة اليونسكو: كويشيرو ماتسورا في تقديمه للكتاب.)

[٣] ينظر: فوكوياما فراسيس، ١٩٩٢م، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ترجمة: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت لبنان.

[٤] فاتيمو جياني، ٢٠١٤م، نهاية الحداثة، ترجمة: نجم فاضل، مراجعة المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، ص.١٩١

ISSN : 2410-1818

فالرشتاين ١٩٣٠م[١](Immanuel Wallerstein) من هنا طُرحت فكرة الما بعديات باعتبارها مرورا إلى ما بعد الغرب وحضارته وحداثته في إجاباتهم عن سؤال النهايات، وصاروا يتكلّمون عن حضارات الشرق وديانات وفلسفاته ونماذجه المعرفية والحضارية، مدعّمين أطروحتهم بنظريات التدافع والتداول والتعارف، وأنّ الحضارات تعرف دورات لها بداياتها ونهاياتها التي لم تعرف أية حضارة في التاريخ غير هذا القانون الكوني والاجتماعي، وبالتالي شرعت الكثير من مراكز الأبحاث والدراسات بعقد المؤتمرات والندوات التي تطرح البدائل أو الإمكانات الحضارية الأخرى؛ ومنها طبعا الحضارة الإسلامية. والسؤال الذي يطرح هنا هل نهتم بالغرب إذن، لأنه يشهد نهايته أو أنه يسير إلى النهاية؟ وبالتالي يحكمه ما يحكم تاريخ الحضارات والثقافات، أم نهتم به باعتباره فكرة ورؤية ونموذجا بالإضافة إلى كونه تجربة حياتية فاعلة في الواقع وصانع للتاريخ وموجّه له.

٤.مبررات التأخر في دراستنا للغرب

لماذا تأخّرنا في دراسة الغرب؟ يطرح الكثير من الباحثين سؤالا يتعلق بسبب تأخرنا في دراسة الغرب، رغم وجود بعض الدراسات[٢] على شكل كتب وبحوث ومقالات نشر معظمها في مجلات علمية تحت مسمّى الاستغراب.[٣]فهل نحن بلغنا مرحلة وعي حقيقية بالغرب وبالآخر؟ وهل ندرسه وفق ما يقوله هو عن نفسه؟ وما يسوقه عن تاريخه وأفكاره ونصوصه المؤسسة له بدء بالمعجزة الإغريقية كما يسمونها؟ هل نتحدث عن الغرب فكرة وعلما ومؤسّسة ومدرسة وحضارة وحقوقا للإنسان مثلما تشير معظم كتابات الغربيين؟[٤] بالتالي يأتي الاهتمام بالغرب بغرض استلهام أفكاره وتجاربه ومناهجه أو التتلمُذِ على يديه كما يريد البعض من مثقفينا والمنبهرين به؟ أم ندرسه وفق نماذجنا المعرفية ورؤيتنا الخاصة للعالم التي تضع مسافة فاصلة بين الأنا والآخر؟ ذلك أنّ المنهجية العلمية تقتضي منا تجاوز الأحكام المسبقة واستبعاد الخلفيات الدينية والفكرية التي تحكم رؤيتنا وتحدّد تحليلنا وتوجّه تفكيرنا حول الآخر بصفة عامة. علما بأنّ فتح مثل هذا الموضوع يدخلنا في جدلية الذاتية والموضوعية أو الحيادية والتحيز في دراسة هكذا موضوعات أو قضايا. ولا أعتقد أنّ المشتغل بالدرس الفلسفي اليوم يمكنه التحرّر من هذه الأحكام أو التخلّص من نموذجه المعرفي المحكوم برؤية العالم في فهمه وتفسيره ودراسته للمشكلات والمسائل ذات الطابع الحضاري، بل يعد البعض التحيز للذات الحضارية ضرورة

[١] فالرشتاين إيمانويل، ٢٠١٧م، نهاية العالم كما نعرفه نحو علم اجتماعي للقرن الحادي والعشرين، ترجمة: فايز الصباغ، مراجعة: هاني تابري، الطبعة الأولى، هيئة البحرين للثقافة والآثار المنامة، مملكة البحرين.

[٢] Nemo, Philippe,2004, Qu'est que l'Occident? Presses Universitaires de France.

[٣] " الاستغراب" مجلة دورية فكرية تعنى بدراسة الغرب وفهمه معرفيا ونقديا، تصدر عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، تحت رقم ISNN ٢٥١٨-٨٥٩٤ بيروت لبنان.

[٤] Philippe Nemo: Qu'est que l'Occident? p11,32.

ISSN : 2410-1818

معرفية ومقتضى منهجيا يحتم علينا الانطلاق من خصوصياتنا الدينية والحضارية؛ غير أننا آثرنا الالتزام في دراستنا بمبدأ المسافة في تعاملنا مع الآخر، بحيث ننطلق في دراستنا للغرب من مسلّمة التباين الحاصل بيننا وبينه على عديد المستويات، كونه (أي الغرب) يمثّل نسقا معرفيا وحضاريا مختلفا عن نسقنا المعرفي والحضاري، ومن كونه يمثّل تجربة تاريخية وخبرة حياتية متباينة عن تجربتنا الغنية والمتنوعة داخل نسق الحضارة الإسلامية بما هي رؤية ومنهج وتاريخ وتجربة وحضارة.

٥. الغرب في كتابات وعيون دارسيه

إن الاشتغال على البحث في موضوع الغرب سبقته الكثير من الأبحاث والدراسات[١] التي جعلت منه موضوعا للتفكر والبحث كما أشرت في بداية المقدمة، منها مثلا ما كتبه المفكر المصري حسن حنفي (١٩٣٧=٢٠٢١) في كتابه الشهير: "مقدمة في علم الاستغراب" والذي أجاب فيه عن سؤال ماذا يعني علم الاستغراب؟ وضح فيه موقع الموضوع ضمن مشروع التراث والتجديد، وكيف أنه يحدد من خلاله موقفنا من التراث الغربي، وفي هذا الموضوع يتم تحديد مصادر الوعي الأوروبي وبداية الوعي الأوروبي، ونهاية الوعي الأوروبي، غير أن اختلافنا مع حسن حنفي في المرجعية والأدوات التي استند إليها جعلت دراستنا تنحو منحى مختلفا عنه، ولهذا رأينا أنّ هذه الدراسات حول موضوع الاستغراب امتازت بالتعدّد والتنوّع الفكري والمنهجي والاختلاف في الرؤية والمنهج نتج عنه اختلاف في مقاربة الموضوع، كما أن هذه الدراسات في اعتقادنا لم تلم إلماما معرفيا ومنهجيا بالموضوع وحيثياته وعناصره ومراحله، ذلك أنّ دراسة الغرب موجودة ولكنها مشتتة وغير ممنهجة[٢]، بل أنّ بعضها انطلق من خلفيات تمجيدية وسلك مسالك تبريرية لما فعله الغرب بنفسه وبالعالم، ناهيك عن منطق الدعوة إلى اتباع فلسفته وحداثته وانتهاج مناهجه المختلفة، واعتباره نموذجا كاملا متكاملا لا يحتاج إلى نقد أو تصحيح، وهذا برأينا منطق مجانب للصواب، مخالف لحقيقة الغرب ونشوئه وتطوره، لأن المنهج العلمي يقتضي من الباحث التزام مبدأ المسافة مع الموضوع المدروس حتى لا تُحجب عنه ماهيات الأشياء وحقائقها، وفي مقابل ذلك هناك دراسات وأبحاث تناولت الغرب بالدراسة والتحليل والنقد، غير أنها انطلقت من رؤية متحيزة إلى حد كبير، فلم تر فيه إلاّ شكلا من أشكال التطرّف والعدوانية والهيمنة والنفوذ وكل ما استتبع الظاهرة الغربية من مآسي وأزمات، وهذا برأينا جانب من حقيقة الغرب وليس كل الحقيقة، إذ أننا ننظر إلى الغرب نظرة مزدوجة؛ بمعنى، نقف عليه باعتباره ظاهرة حضارية متميزة، وفلسفة ورؤية

[١] راجع: حنفي حسن، ١٩٩١م، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع القاهرة .

[٢] ينظر: عبد العزيز بو الشعير: مساءلات نقدية في جدل العلاقة بين الغرب والعلمانية، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية الجزائر، المجلد ٢٥ العدد4 ،2021 م.

ينظر أيضا: حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١م.

ISSN : 2410-1818

للعالم مخصوصة ومهيمنة، ومنهجا للحياة بمنظومة معرفية وقيمية محكومة بشروط تاريخية وظروف حضارية معينة، أصاب في أشياء كثيرة وأخطأ أو قصّر في جوانب عدة، مستندنا في ذلك هو قراءة الخلفية الفلسفية والدينية وبيان أثر الثورات العلمية التي ظهرت في الغرب، فطوّرها وحسّن من مضامينها وجوّد في أساليبها وارتقى بأدائها في الواقع بما سمح له ببناء نموذج معرفي وحضاري متميز، له جوانب قوة وعلامات تفوّق، كما له جوانب ضعف ومواطن نقص وقصور، وهذا ما دفعنا إلى الكتابة في موضوع الغرب برؤية معرفية متوازنة ومنهجية علمية ومقاصد قيمية نقدية من جهة، وتحسينية من جهة ثانية واستشرافية من جهة ثالثة.

ولعل من أسباب النظر إلى الغرب على أنه نموذج متكامل، عقدة النقص التي تسكن الكثير من الباحثين في العالم العربي والإسلامي، الذين انبهروا به فقلّدوه ومدحوه ودعوا إلى تقليده والاحتكام إلى معاييره المعرفية والوجودية والقيمية، متأثرين بالرؤية الاستشراقية التي كرّست عقدة التفوّق والغلبة في النظام المعرفي الغربي وموقفه السلبي والعدائي من الشرق أو الآخر. بل كان من نتائجها أن طرح بعضهم السؤال الآتي: هل نملك المؤهّلات الفكرية والعدة المنهجية لدراسة الغرب وفهمه؟ وهل يملك العقل الإسلامي القدرة على مسايرة الثورة المعرفية في الغرب؟ أو على الأقل إمكانية منافستها وتجاوزها؟ هل نملك آليات التواصل الناجح والتفاعل الإيجابي مع الغرب؟ أو بالمعنى الذي قصده مالك بن نبي في كتاباته عن جدلية الأنا والآخر؛ بمعنى، هل نحن مؤهّلون لنكون تلميذا ناجحا للغرب كما فعل الإنسان الياباني؟ وبالتالي يمكن أن نرقي إلى مستواه المعرفي والمنهجي والحضاري، فنكون ندا له، ألا يعلم الكثير بأنّ الغرب متمنّع عن المنافسة والمجاوزة ومتفلّت عن الوعي أو الفهم ومتعذّر عن التملّك؟ كما يرى بعض الغربيين، بحجة أنّ كلّ تملُّك للغرب هو تملُّك للذات في الآن ذاته؟ وهذا يحيلنا بالضرورة إلى طرح إشكالية دراسة الغرب في صورته البريئة المسالمة للآخر، أم ندرس الغرب المتوحّش المصادم للآخر، البعيد عن كل أشكال التأنّس وحالات التعايش التي عرفتها الحضارات الأخرى على الأقل على المستوى النظري؟ لأن الذي يبحث في الجذور التاريخية للغرب المسيحي المعاصر يقف ولا شك على الحقائق التي تعضد ما أشرنا إليه للتو، ونحن بصدد الحديث عن نظرته العدائية وطريقته الصدامية مع ذاته من جهة، من خلال الحروب التي عاشها طيلة القرون الأربعة الأخيرة، أو مع الآخر المختلف عنه من خلال الاستعمار بأشكاله المتنوّعة.

ومن التساؤلات التي طرحت عند دراستنا للغرب، هل للغرب مركز وهوامش؟ ما هو الثابت فيه وما هو المتغيّر؟ هل هو مستويات متفاوتة ومختلفة أو بنية واحدة وكتلة متماسكة؟ أم أنه بنيات متعدّدة ومتفاوتة في الوعي وفي المستوى الحضاري؛ بمعنى أنّ هناك قوى غربية مؤثرة في مسار الغرب ومحددة لوجهته وأخرى متأثرة أو تابعة وليس لها سلطة صنع القرار أو اتخاذه في القضايا والمسائل الكبرى والمصيرية التي تمس الغرب، سواء كان ذلك على المستوى السياسي أو المستوى الاقتصادي، أو المستوى

ISSN : 2410-1818

العسكري ...الخ وبالتالي فالقوى المُشكّلة له ليست على خط أو مستوى واحد، وإنما الغرب عبارة عن مستويات متفاوتة فيما بينها.

وقد تمخض عن هذه التساؤلات تساؤل آخر مفاده، هل يمكن للعقل الإسلامي أن يجسّر الهوة العميقة مع الآخر الغربي طالما أنه ليس واحدة؟ وما هي حدود التجسير إن وُجدت؟ ومن يتحكم في مستوى هذه العلاقة أو التجسير؟ "أم هل مطلوب منه أن يكمل مسار الحضارة والحداثة من حيث ما انتهى إليه الغرب وما وصل إليه؟ وهل يستطيع تحقيق ذلك في الواقع في إطار خصوصياته الدينية والمعرفية والحضارية؟"[1] وفي ظل وجود الموانع الثقافية وعظم التحديات الاقتصادية وصعوبة الإكراهات الواقعية المقيَدة بقضايا الهوية والدين والتاريخ و اللغة والإمكان والمستقبل أو المصير.

كما يمكننا أن نتساءل عن حقيقة الغرب؛ هل هو صنيع ذاته في إطار تمركزه على ذاته دينيا ومعرفيا وحضاريا، من دون تدخل أو تأثير عوامل خارجية ثقافية وحضارية ساهمت في تشكيله وصناعته؟ وفي حال ثبوت الفرضية الثانية ما هي حدود تفاعله مع الحضارات والثقافات الأخرى ومنها الثقافة والحضارة الإسلاميتين؟ وفي هذه الحالة قد يقول البعض أنّ الغرب ليس ظاهرة مستقلة عن الظواهر الحضارية الأخرى بقدر ما هو مرحلة من مراحل عمر البشرية، ومستوى من مستويات التطوّر والتحضّر التي بلغها الإنسان الحديث والمعاصر، وعندئذ نتساءل لماذا يعد الغرب مرحلة من مراحل تطور العالم؟ بل ولماذا يعتبر الغرب أنّ الآخر مرحلة من مراحل تطور الذات الحضارية له وبالتالي فهو صنيع له وجزء منه وليس منفصلا عنه؟ بمعنى آخر؛ كيف برّر الغرب صناعته للغير أو للآخر كما تقول بعض الدراسات الاستشراقية؟ ولماذا الشرق موجود بغيره لا بذاته كما جاء في عنوان الكتاب الذي ألّفه غريغوار منصور مرشو(١٩٤٦م)؟[2] بل كيف قارب الغرب ذاته مع الآخر؟ وعلى أيّ أساس اعتمد المقاربة الثنائية التي تتحدّث عن كونه مركزا للعالم والآخر هو الهامش؟ وما هي المحدّدات المعرفية والشروط المنهجية التي حكمت علاقته مع الآخر؟ وما هي انعكاسات هذه المقاربة على العالم؟

٦.الغرب بين سؤال المنهج وسؤال القصد

يتساءل الكثير من المهتمين بالشأن الغربي عن المقاصد الكبرى لفهم الغرب ودراسته؟ وعن الرؤية المعرفية والقيم الحضارية والضوابط المنهجية التي تحكمنا في دراستنا للغرب وفهمه؟ ويبحث عما هي الأدوات المعرفية والمنهجية والإجرائية التي تسمح لنا بدراسته؟ ثم هل نملك رؤية واضحة وناضجة

[1] أمين أحمد، ١٩٥٥م، الشرق والغرب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ص.٤.

[2] أنظر :مرشو، غريغوار منصور،١٩٩٦م، مقدمات الاستتباع الشرق موجود بغيره لا بذاته، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية.

ISSN : 2410-1818

عن الغرب وحضارته وثقافاته؟ وهل نضج اهتمامنا بالغرب كموضوع للدراسة؟ وهو المنهج المناسب لدراسته أو للتعامل معه؟ وما الغاية من جعله موضوعا للدرس الفلسفي؟ بل إن بعضهم يقول هل نملك الإمكان المعرفي والحضاري الذي يسمح لنا بالحد من هيمنة الغرب أو بالاستفادة منه وتسخير ما يتوفّر لديه من منجزات؟ وبالمنطق البراغماتي لماذا لا نبحث عن العوامل والشروط التي تؤهلنا للسيادة التاريخية وبلوغ مستوى القيادة الحضارية للعالم؟ و "هل كانت العوامل التي منحت الغرب الهيمنة موجودة أصلا في وقت سابق، أم ظهرت فجأة في العصر الحديث."؟[1] بل وفي أية شروط معرفية ونفسية وتاريخية ظهر الغرب كقوة متقدّمة ومهيمنة؟ وإلى أي حد يمكن للأمم الأخرى الاستفادة من تجربته؟ وما هي حدود هذه الاستفادة؟

وهل كانت فرضية هيمنة الغرب على العالم حتمية تاريخية وحضارية طويلة المدى كما يعتقد بعض المؤرخين وفلاسفة التاريخ والحضارة؟ أم كانت هناك فرضيات أخرى بعيدة عن الهيمنة والنفوذ وإلحاق الأذى بالآخر؟ ثم هل نتبنّى فرضية النموذج العرضي قصير المدى الذي يتفق فيه أصحابه على أنّ "الهيمنة الغربية لم تقتصر على الغرب منذ الماضي البعيد، فقد تقدّم الغرب مؤقّتاً فحسب بعد عام ١٨٠٠ عشية حرب الأفيون على الشرق، بل كان الأمر عرضياً إلى حدّ كبير."[2] وفي أية شروط تاريخية يمكن أن يتجاوز الغرب والعالم منطق الهيمنة التي بسطها على البشرية؟ أليس حريا بنا تطبيق النموذج التفسيري في فهم التاريخ والحضارات وفق المنطق القرآني الذي يشير إلى سنة التداول والتدافع بين الأمم، وبالتالي القول بأنّ الهيمنة والسيطرة مؤقتة مهما طال زمنها، وأنّ أمما وحضارات أخرى ستبرز وتتألقّ وتستأنف دورها الحضاري في إطار الدورة الحضارية وفق السنة التاريخية والكونية التي أشار إليها القرآن الكريم؟

٧. الغرب وسؤال الهيمنة

بين هذا وذاك، ما هو الجواب الذي نقدّمه لسؤال: لماذا يهيمن الغرب اليوم؟ وهل تقنعنا المقاربة التي تفسّر هيمنة الغرب والاحتجاج بـــأنّ "الثورة الصناعية قد حدثت هناك، وليس في الشرق. ففي القرن الثامن عشر أطلق رواد الأعمال البريطانيون طاقات البخار والفحم. ومنحت المصانع والسكك الحديدية والسفن أوروبيي القرن التاسع عشر وأمريكييه القدرة على بث القوة عالمياً، وأتاحت الطائرات وأجهزة الكومبيوتر والأسلحة النووية في القرن العشرين لخلفائهم ترسيخَ هذه

[1] موريس، إيان،٢٠١٨م، لماذا يهيمن الغرب اليوم؟ أنماط التاريخ وما تكشفه لنا عن المستقبل، ترجمة: روان القصاص، مراجعة: محمد كمال، ط١، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت لبنان، ص ٣٩.

[2] المرجع نفسه، ص ٣٣.

ISSN : 2410-1818

الهيمنة."[1]وبالتالي فهيمنت الغرب التي وقعت لها سياقها التاريخي وشروطها الاجتماعية والعلمية والتكنولوجيا، وأنّ أيّ أمة أخرى متى توفرت لها نفس الشروط ستقوم بنفس الممارسات وتتبع نفس الأساليب، غير أننا يمكن الرد على هذه الأطروحة بالقول أنّ الحضارة الإسلامية في تاريخها الحافل بالإنجازات والفتوحات لم تقم بما قامت به الحضارة الغربية، ولم تتبع نفس الأساليب التي اتبعها الغرب، بل كانت سمتها الغالبة نشر قيم الحق والخير والجمال في العالم، والسير على منهج الحكمة والعدل والإحسان امتثالا لما ورد في القرآن الكريم في الآية ٩٠من سورة النحل.[2] وتأسّيا بما جاء في السيرة النبوية الشريفة واقتداء بالنبي المصطفى صلى الله عليه وسلم. وبناء على ذلك كلّه، هل يمكننا تبرير وتفسير أسباب اهتمامنا بسؤال لماذا يهيمن الغرب؟ من أنهم "يريدون معرفة ما إذا كانت تلك الهيمنة ستستمر، ومدى استمرارها وكيفية استمرارها، أو بشكل آخر: ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ (...)ويعدّ سؤال: (إلى متى سيظل الغرب في القمة؟) سؤال ملحاً"[3]بل سؤالا إشكاليا في الوعي العربي المبصر بمصير الغرب أولا، وبمصير العالم ثانيا، في ظل الشروط النفسية والاجتماعية والتاريخية التي يعيشها الغرب والتي وفرت له عوامل الهيمنة والسيطرة والتي جعلت من الغرب ظاهرة حضارية مستمرة إلى الآن. وعلى هذا الأساس يعتبر مدخل فلسفة التاريخ وقوانينه وخصائصه من المداخل المعرفية والمنهجية المهمة في مقاربة الظاهرة الغربية وفهم سننها ونواميسها التي تحكمها، والمآلات التي تنتظرها على المدَيَين المتوسط والبعيد، ومحاولة استلهام الدروس والعبر من دراستها وفهمها، وبيان جوانب الاستفادة منها.

ولعلّ من بين الإجابات التي قُدّمت في هذا الإطار؛ أعني التفكير في سبب هيمنة الغرب واستمراره، ما أشار إليه تشرشل بقوله: " كلّما نظرت أبعد إلى الوراء أمكنك أن ترى أبعد إلى الأمام"[4] وفي هذا إشارة واحدة إلى حقيقة أنّ معرفة لماذا يهيمن الغرب؟ تمنحنا معنى جيدا عن كيف ستؤول الأمور في القرن الحادي والعشرين.[5]وفي نفس السياق كتب المؤرخ الاسكتلندي نيال فرغسون-(ولد بتاريخ ١٩٦٤)-عن ظاهرة صعود الغرب كظاهرة تاريخية تحتاج إلى تفسير، واعتباره لغزا لابد من بذل جهد في حلّه حتى نتمكّن من تقدير احتمالات انحداره وسقوطه، إذ يقول: "إنّ صعود الغرب، بكل بساطة، الظاهرة التاريخية الأهم في النصف الثاني من الألفية الثانية بعد المسيح. إنها القصة التي توجد في قلب التاريخ الحديث. ربما هي اللغز الأكثر إثارة للتحدّي الذي يبقى على المؤرخين حلّه. علينا أن

[1] المرجع نفسه، ص ٢٥.
[2] سورة النحل، [الآية90]
[3] المرجع نفسه، ص ٢٦.
[4] المرجع نفسه، ص ٢٦.
[5] المرجع نفسه، ص ٢٦.

ISSN : 2410-1818

نحلّ هذا اللغز ليس من أجل إرضاء أنفسنا فقط، وذلك لأنه بواسطة تحديد الأسباب الحقيقية لصعود الغرب يمكننا فقط، بدرجة من الدقة، تقدير احتمال انحدارنا وسقوطنا."[1]

وفي ذلك إشارة واضحة إلى إيمان بعض الغربيين خاصة الأكاديميين منهم بفرضية انحدار الغرب وتوفر بعض عوامل سقوطه، وربما الأمر ليس جديدا على الوعي الغربي بخصوص فرضيات الانحدار والسقوط وأشكالها وتاريخها، لأن الكتابة في مثل هذا الموضوع بدأها المؤرخون الغربيون وفلاسفة تاريخه مع مطلع القرن العشرين، فجاءت كتابات أوزفلد اشبنجلر(Oswald Spengler 1880-1936) خاصة كتابه "تدهور الحضارة الغربية" الذي يعرض فيه نظريته عن سقوط وازدهار الحضارات وكيف أن ذلك يتم بشكل دوري، وأن عمر الحضارات محدود ومصيرها جميعا إلى الأفول،[2] وقد طبعت كتاباته بطابع الرفض لمسلّمة التفوق العرقي وكذا تشاؤمه بشّأن مستقبل أوروبا، وكذلك كتابات أرنولد توينبي(١٨٨٩Arnold TOYNBEE-١٩٧٥) وبعض المفكّرين الغربيين الذي أسلموا كروجيه غارودي ورينيه غينون(René Guenon 1886-1951) الذي أشار في كتاباته عن طغيان النزعة الفردانية في الحضارة الغربية٣ التي تنكر الغيب وتكتفي بالإنسان وعقله فقط والذي من نتائجه انتشار العمى أو الفوضى الاجتماعية وتغوّل المادية وسيادة النزعة المركزية الغربية التي تُقصي الحضارات الأخرى عن حضورها وأدائها الفكري والروحي في مسرح العالم المعاصر، الشيء الذي يؤدي حتما إلى الانهيار الكبير للغرب واختفائه من العالم، وهو الذي ينتهي في تحليلاته إلى جملة من الحقائق التي تحكم الغرب وتوجه رؤيته ونماذجه المعرفية نعبر عنها بالتساؤلات الآتية: هل يحكم الأدنى الأعلى؟ هل يفرض الجهل قيوده على الحكمة؟ كيف يقدَّم الخطأ على الحقيقة؟ بل وكيف يستبدل الإنسان باللّه؟ ولهذا تبيّن لغينون أنّ هيمنة الحضارة الغربية ليس قدرا محتوما وليس أمرا نهائيا مستمرا، وإنما حصل ذلك بسبب فوضى في حركة التاريخ ومساره الغربي، لذلك يطرح رينيه غينون الإسلام كبديل للحضارة الغربية بما يقدّمه للعالم وللبشرية من هدية وهداية للناس في وجه روح العالم الحديث

[1] فرغسون، نيال،٢٠١٩م، الحضارة كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟، ١٠ ترجمة: سعيد محمد الحسنية، ط٣، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت لبنان، ص ٦٠.

[2] أشبنجلر، أسوالد، ١٩٦٤م، تدهور الحضارة الغربية، جزآن، ترجمة: أحمد الشيباني، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.

[3] ينظر: شيخاوي جمال الدين، ٢٠٢٢م نقد الحضارة الغربية عند عبد الواحد يحي، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، المجلد١١، العدد٠٣، جامعة وهران٢، الجزائر.

ISSN : 2410-1818

"الشيطانية" كما يسمّيها. عبّر عن جملة هذه الأفكار والرؤى في كتابه" أزمة العالم الحديث" الذي نشره عام ١٩٢٧م[١] .

وهناك كتابات نقدية أيضا للمفكر والدبلوماسي الألماني مراد هوفمان١٩٣١م (Murad Hofman) نبّه فيها إلى فرضية سقوط الغرب وانتحاره كما يقول ريتشارد كوك وكريس سميث في كتابهما "انتحار الغرب" إذ أنهما طرحا سؤالا مهما: هل الانتحار محتوم؟ بقولهما: "آن الأوان كي نجمع خيوط مناقشتنا معا. وننظر إن كان هناك أي طريق لمصالحة أفضل ما في الحضارة الغربية مع الاتجاهات التي فرضتها على نفسها بنفسها، وهي تمزقها إلى أجزاء..."[٢]

خاتمة

تنتهي في هذا البحث إلى جملة من النتائج نوجزها في الآتي:

- ثمة علاقة جدلية تحكم وعينا بالغرب كظاهرة حضارية متميزة، فهو حاضر في وعينا واهتماماتنا، وفي واقعنا اليومي بما أنتجه من أفكار وفلسفات وبما قدّمه من مناهج وصناعات ولما أبدعه من تكنولوجيا بمختلف وسائلها وأدواتها، حتمت علينا التعامل معه بمنطق البراغماتية من جهة، وبالحذر من آثاره وانعكاساته السلبية علينا وعلى العالم من جهة ثانية.

- الاهتمام بالغرب له ما يسوغه من الناحية المعرفية والحضارية، فهو المتقدم حضاريا والمنتج علميا والمتميّز معرفيا والمتحكّم والموجِّه لحركة الفكر والعلم منهجيا والمهيمن والمؤثر واقعيا وقائد العالم ولماذا تأخرنا في دراسته؟

- تراوحت صورة الغرب في عيون دارسيه بأشكال مختلفة بين التهوين والتهويل، إذ رفع البعض من شأنه ودعوا إلى تقليده والحذو حذوه في جميع المجالات، في مقابل الرأي الذي نقده نقدا لاذعا فقلّل من شأنه واحتقر منجزاته وركزّ على أخطائه وانحرافاته في الفكر والسلوك.

---

[١] جينو، رينيه، عبد الواحد يحي، ٢٠١٩م، أزمة العالم الحديث، ترجمة: أسامة شفيع السيد، ط١،مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت لبنان. وأنظر أيضا:

Guenon René, 1946. La crise du monde moderne, Les Editions Gallimard, Paris, France,

[٢] كوك، ريتشارد وسميث كريس، ٢٠٠٩م، انتحار الغرب، ترجمة: محمود محمود التوبة، ط١، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة الإمارات العربية المتحدة، العبيكان المملكة العربية السعودية، ص ٢٨٧.

ISSN : 2410-1818

- الغرب محكوم بؤرية معرفية للعالم انصهرت في جدلية المركز والهامش كنموذج معرفي يحدّد نظرته إلى نفسه ويضبط نظرته وموقفه وتعامله مع الآخر، وفي اعتقادنا أنّ ذلك لأسباب نفسية وخصائص ذهنية وخلفيات فكرية وتحيزات إيديولوجية شكّلت الوعي الغربي ووجهت سلوكياته ومواقفه وتعاملاته.

- جاءت هيمنة الغرب وسيطرته على العالم كنتيجة طبيعية لشروطها التاريخية وسياقاتها الحضارية ورؤيته للعالم، أفرزت في النهاية خصائص نفسية للإنسان الغربي، فكانت نتائجها ما انتهى إليه الغرب من أشكال السيطرة والعدوان والاستغلال للآخر بطرق وأساليب مختلفة.

- وبناء على ما سبق، فإنه من الضروري التفكير عما سيحدث بعد سقوط الغرب، والبحث في سؤال إلى متى سيظل الغرب مهيمنا وباسطا نفوذه على الآخر، والسعي المبصر والمنهجي إلى تجاوز جدلية المركز والهامش وثنائية الأنا والآخر، والعمل على طرح رؤى أخرى لأشكال العلاقة بين الأمم والحضارات.

- شكّل الغرب ظاهرة حضارية معقدة، فهو بمثابة لغز مثير للتحدّي وباعث على الفهم، يحتم علينا دراسته وفهمه والوقوف على شروط صعوده وعوامل انحداره أو انهياره حتى نتلافى الوقوع فيما وقع فيه والبحث عن بدائل أخرى تخلو من نقاط الضعف أو الانحراف التي اتسمت بها الظاهرة الغربية.

توصيات البحث:

- توحيد الجهود المبعثرة والقيام بالمبادرات الواسعة في الأخذ بزمام دراسة علم الاستغراب وفق أسس ومناهج نقدية وعلمية معينة توضّح التباين وتعين الباحثين في فهم الغرب وحضارته ونمطيته تجاه الآخر ومحاولة الإجابة على التساؤلات المتعددة.
- عقد ورشات فكرية وحلقات بحثية في دراسة موضوع الغرب ومنهجية التأسيس لعلم الاستغراب.

ISSN : 2410-1818

قائمة المصادر والمراجع

١. أحمد أمين: الشرق والغرب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٥م.
٢. أدريين كوخ: آراء فلسفية في أزمة العصر، ترجمة: محمود محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر نيويورك، سبتمبر ١٩٦٣م.
٣. أزوفلد اشبنجلر: تدهور الحضارة الغربية، جزآن، ترجمة: أحمد الشيباني، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان.
٤. إيان موريس: لماذا يهيمن الغرب اليوم؟ أنماط التاريخ وما تكشفه لنا عن المستقبل، ترجمة: روان القصاص، مراجعة: محمد كمال، ط١، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت لبنان، ٢٠١٨م.
٥. إيمانويل فالرشتاين: نهاية العالم كما نعرفه نحو علم اجتماعي للقرن الحادي والعشرين، ترجمة: فايز الصباغ، مراجعة: هاني تابري، الطبعة الأولى، هيئة البحرين للثقافة والآثار المنامة، مملكة البحرين، ٢٠١٧م
٦. جياني فاتيمو: نهاية الحداثة، ترجمة: نجم فاضل، مراجعة المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان. ٢٠١٤م.
٧. جيروم بندي(تحرير): القيم إلى أين؟ ترجمة: درويش جبور وجان جبور، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون" بيت الحكمة" واليونسكو، قرطاج تونس، ٢٠٠٥م.
٨. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١م.
٩. راندال كولينر: نشأة الفلسفات والأفكار، المجلّد الأوّل، ترجمة: فريق جسور للترجمة، مراجعة: خليفة الميساوي، ط١، جسور للترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠١٩م.
١٠. راندال كولينر: علم اجتماع الفلسفات التأثير الاجتماعي والسياسي في نشأة الفلسفات والأفكار، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، الإمارات العربية المتحدة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
١١. ريتشارد تارناس: آلام العقل الغربي فهم الأفكار التي قامت بصياغة نظرتنا إلى العالم، ترجمة: فاضل جتكر، ط١، العبيكان المملكة العربية السعودية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، الإمارات العربية المتحدة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
١٢. ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب، ترجمة: محمود محمود التوبة، ط١، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، الإمارات العربية المتحدة، العبيكان المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٩م.
١٣. ريتشارد ويكارت: موت الإنسانية، ترجمة: نايف الملا، تعليق رضا زيدان، ط١، دار تشويق للنشر والتوزيع، مصر، مركز دلائل الرياض-المملكة العربية السعودية، ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م.
١٤. رينيه جينو(عبد الواحد يحي): أزمة العالم الحديث، ترجمة: أسامة شفيع السيد، ط١، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت لبنان، ١٤٤١هـ/٢٠١٩م.

ISSN : 2410-1818

١٥. سيد حسين نصر: الإسلام ووعثاء الإنسان الغربي الحديث، ترجمة: عمر نور الدين، ط١، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة.
١٦. عبد الوهاب المسيري: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، ط١، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ١٤٣٧هـ/٢٠٠٦م.
١٧. علي عزت بيجوفيتش: سيرة ذاتية وأسئلة لا مفر منها، ترجمة: عبد الله الشناق ورامي جرادات، ط١، دار الفكر دمشق، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
١٨. غريغوار منصور مرشو: مقدّمات الاستتباع الشرق موجود بغيره لا بذاته، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
١٩. غوندر فرانك: البورجوازية الرثّة والتطور الرثّ، ترجمة: الهيثم الأيّوبي والكرم ديري، دار العودة بيروت، ١٩٧٣م.
٢٠. ماكس فيبر: مقالات في سوسيولوجية الدين الثقافة البروتستانتية، ترجمة: منير الفندري، مراجعة: فضل الله العميري، ط١، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، أغسطس ٢٠١٥م.
٢١. مجموعة مؤلفين: ما بعد العلمانية دراسات نقدية، ترجمة: طارق عثمان، ط١، نماء للبحوث والدراسات، بيروت لبنان.، ٢٠٢٢م.
٢٢. محمد حبيدة: أوروبا في القرن التاسع عشر نابوليون، ط١، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠٢١م.
٢٣. نيال فرغسون: الحضارة كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟ ترجمة: سعيد محمد الحسنية، ط٣، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت لبنان، ٢٠١٩م.
٢٤. نيكولا بورداس: الفكرة القاتلة السياسة، الأعمال، الثقافة...إصرار الأفكار الخالدة، ترجمة: وفاء التومي، مراجعة وتحرير: نزار شقرون، ط١، وزارة الثقافة والرياضة، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، قطر، ٢٠١٦م.

٢. المراجع باللغة الأجنبية

١. Niall Ferguson. Civilization The West and the Rest, The Penguin Press, 2011.
٢. OSWALD SPENGLER: The Decline of the West, Perspectives of World History.
٣. Philippe Nemo: Qu'est que l'Occident? Presses Universitaires de France, 2004.
٤. Philippe Nemo: What is the West, Duquesne University Press, 2006?
٥. René Guenon, La crise du monde moderne, Les Editions Gallimard, Paris, France. 1946,
٦. Richard Tarnas. The Passion of the Western Mind Understanding the Ideas That Have Shaped Our World View, vintage publishing, London, 2010.